الأصول والتقاليد الفنية المعمارية للمدارس التعليمية الأثرية في الجزائر.

Architectural Origins and Traditions for Archaeological Educational Schools in Algeria.

بن شامة سعاد.

- المركز الجامعي مرسلي عبد الله؛ تيبازة؛ (الجزائر).
- مخبر البناء الحضاري للمغرب الأوسط؛ جامعة الجزائر2؛ (الجزائر).
- البريد الإلكتروني: *s.benchamma17@gmail.com*

تاريخ الإرسال: 2022/03/20؛ تاريخ القبول:2023/06/07؛ تاريخ النشر:2023/06/09.

الملخص:

انطلاقا من أن المدرسة تخطيطا وتصميما لها مرجعيتها الفنية المعمارية على أرض المغرب الأوسط، فقد كان انفصالها – كمؤسسة – عن عمارة المسجد عامل أساسي حتّم أن تتناسب عمارتها مع وظيفتها، وبالتالي احداث نوع من العمائر دخل العمران الإسلامي وحمل معه انتقادات وتحاليل ارتقت لتفصل في أصول عمارتها، معماريا وفنيا في المغرب الإسلامي، وبالاعتماد على تعرض عمارتها إلى المحلية أو التأثيرات الوافدة ومنه امكانية التعبير عن المستوى العلمي، بدءًا من الفترة الموحدية إلى المرينية إلى العهد العثماني، تحديدا في الجزائر.

عن الإشكالية البحثية، فإنه يمكن النظر فيما إن كان الأصل في بناء المدرسة هو المرجعية المعمارية المحلية الإسلامية في كل من المشرق

والمغرب أم ملامح نمطية قد تنسبها إلى أصل أقدم، كما أنه من الضروري النظر أيضا في أهمية ودور أقسامها الرئيسية ومرافقها وعناصرها المعمارية.

أما الأهداف البحثية، فإن الجوهري منها في مثل هذه الدراسات الأثرية، هو الاهتمام بالجانب الهيكلي والتصميمي للمؤسسة التعليمية في إطار توافق هندسة عمارتها مع وظيفتها، واستخلاص تفرد هذا المعلم بأسس تصميمية مميزة، والذي يدعمه عدم الانقطاع عن إقامتها، ووجود نماذج قائمة إلى يومنا هذا.

الكلمات المفتاحية: المدارس؛ التخطيط ؛ الأصول المعمارية؛ الفترة المرينية؛ العهد العثماني.

Abstract:

Based on the fact that the school as regarded from its construction plan and design has its own architectural and artistic reference in Central Maghreb, its distinction - as an institution - from the architecture of the mosque was an essential factor which necessitated that its architecture be compatible with its function, and therefore the creation of a new kind of buildings that entered the Islamic architecture and triggered criticism and analyzes that rose to determin the origins of its architecture, architecturally and artistically in the Islamic Maghreb, and based on the exposure of its architecture to local style or foreign influences, therefore the possibility of demonstrating the scientific level, starting from the Almohad period to the Marinids up to the Ottoman era, specifically in Algeria.

Regarding the research problem, it is possible to consider whether the origin of school building is the local Islamic architectural reference in both the East and the Maghrib, or typical features that may be attributed to an older origin. As it is also necessary to look into the importance and role of its main departments, facilities as well as its architectural elements.

As for the research objectives, what is essential in such relatively rare archaeological studies is the attention to the structural and design aspect of the educational institution within the framework of the compatibility of its architecture with its function, and extracting the uniqueness of this monument with distinctive design foundations, which is evidanced by its continued building and the existing these models todate.

Keywords: schools; planning; architectural origins; the Marinid period; the Ottoman era.

مقدمة:

قبل الإحاطة بالتصميم المعماري للمدرسة في مسارها التاريخي على أرض المغرب الأوسط -الجزائر- من ضروري الإطلال على الجوانب التي شكلت أرضية ظهورها، ومنه انتشارها إلى أن أصبحت من المعالم التي لا يمكن أن تنفصل عن عمران المدينة الإسلامية، وغدت اللّبة التي يمكن أن نجزم بها على التفوق الحضري والحضاري. كما أن التحليل المعماري للمدارس إنما يغذيه شقين أساسيين متكاملين؛ أولهما الجانب التاريخي الذي يسهم بشكل أو بآخر في تسهيل التعرف على الظروف البيئية التي أسست للعملية التعليمية وبالتالي صناعة العلم، وثانيهما الوقوف على المعطيات الهندسية والفنية التي طبقت على عمارة المدرسة والتي حققت نمطية معينة يمكن من خلالها الفصل في الأصول والتقاليد في المشرق والمغرب الإسلاميين.

ترتكز منابع التشريع الإسلامي على رفعة وسمو الإنسان لفك العزلة الفكرية عن المجتمع الإسلامي، كما أن تشعب عوامل بين سياسية واقتصادية بتراكماتها تهيئ لوضع علمي معين، مطلبه مؤسسات ومقرات بوفرة تحدث نقلة من العزلة إلى الانفتاح على أبواب الحضرية والرقي. وإن التعبير عن المستوى المتحضر وتقييمه في الجزائر

خلال العهد العثماني، إنما من خلال ما أفرزته مؤسسات الدولة وما أنتجه فئات المجتمع من صنائع وما أتقنته من فنون.

عن الإشكالية البحثية، يمكن النظر فيما إن كان الأصل في بناء المدرسة هو المرجعية المعمارية الفنية المحلية في كل من المشرق والمغرب الإسلاميين، أم نصطدم بملامح نمطية قد ننسبها إلى أصل أقدم، وبالتالي نكران الابتكار والإبداع ضمن الفن المعماري الإسلامي.

إن الفعل التعليمي أو صناعة العلم في الجزائر خلال العهد العثماني يدرك حضوره أو غيابه بإحصاء المعالم البنائية وكذا علمائها وحركية أبناء المجتمع فيها، وهو ما نقف عنده لنرى موقع المغرب الأوسط- الجزائر- في هذا، فالإنتاج العلمي وكثرة العلماء مؤشر تقييمي إلى حد ما كبير على الوضعية التعليمية. كما أن الجانب المكمل للإلمام بالوضع التعليمي إنما هياكله التي هي من صميم الدراسات الأثرية، بمعرفة تصميمها واستمرار التقاليد المعمارية فيها، لأنه من الضروري النظر في أهمية ودور الأقسام الرئيسية في المدرسة ومرافقها وعناصرها المعمارية.

وإن كانت المدارس سواء تلك التي أدت دورها ثم أفلت أبنيتها ووظيفة، أو تلك التي حافظت على ملامحها، تفتح باب النظر في أدائها ومواطن قوة مرجعيتها، وهي التي أسهمت في استيعاب طلاب العلم من جهة وحرصت على خدمتهم من جهة أخرى وحتما أمام تحديات واجهتها.

كما يجدر بنا النظر في انفصال المدرسة كمؤسسة تعليمية عن المسجد كمؤسسة تعبدية - إن جاز التعبير - بأن نبحث في هل حققت المدرسة تطورها وأهدافها؟ وبالتالي نرصد هنا الواقع في شقه المادي في الجزائر خلال العهد العثماني، وهو ما حقق تجاوبا وظيفيا مع تطلعات الواقفين على هذه المؤسسة.

أما عن الأهداف البحثية فإنه نظرا لوجود أسس حقيقية مهدت لإقامة المدرسة والتي وفقت في احتواءها وربطتها ببيئة ساعدت في تسطير خطوات تجسيدها، بدليل عدم الانقطاع عن اقامتها، وتفرد هذا المعلم بأسس تصميمية مميزة. حيث يكمن الهدف الجوهري في دراسة الجانب الهيكلي والتصميمي للمدرسة في إطار توافق التصميم المعماري مع وظيفتها، في هدف آخر هو تقدير نسبية المستوى التعليمي في الجزائر خلال العهد العثماني، في ظل إطار سياسي انصب اهتمامه على رصد المال، ونظام اجتماعي متعطش لعروض التحسينات العمرانية بكل أشكالها.

بقدر ما يمكن للدراسة التاريخية أن تقوم بتشريح الأحداث، فإن موضوع عمارة المدرسة نهدف من خلاله إلى تحليل معطيات واقع تعليمي من خلال تأكيد وجود معالم بنائية كانت بالفعل حاضنة للتعليم، أو ننفي ذلك من خلال ندرة تلك المباني وعدم وضوح مخرجات خدمتها وانتاجها، في علماء ومؤلفات تؤكد ذلك.

1- جوانب من الأصول المعمارية للمدرسة:

قدمت المدرسة في مسارها التاريخي الإسلامي نماذجًا أكسبتها صورة تكاد تكون نمطية في جوهرها من صلب الحضرية وأساس الحضارة الإسلامية. وهي لا تعدو أن تكون تكاملا حقيقيا بين أطراف هم الحكام والعلماء والمتعلمين والبرامج، تفاعلهم على قدر كبير من الأهمية في ترسيخ الموروث التعليمي في الجزائر. وإن كنا نعتقد انسجام مبناها مع وظيفتها إنما كرّس لمنظومة تعليمية تناسقت فيها الهندسة التصميمية مع تعدد الأدوار فيها.

يرى يوسف البرغوثي أنه يرجح أن الشيعة هم أول من أنشأ "دور العلم" لنشر مذهبهم، وأهل نيسابور هم أول من بنى "مدرسة" في عهد نظام الملك أيام السلاجقة(البرغوثي،2016: 148)، ثم ظهرت المدارس السّنية في شرق العالم الإسلامي وعمّم صلاح الدين الأيوبي انشاءها في كثير من مدن مصر والشام(محمد رزق، 2000: 272).

رغم تعدد الآراء حول أسبقية الدولة التي ظهرت فيها المدارس، تبقى "بيت الحكمة"، الفضاء المعماري الأول حيث بوادر ظهورها زمن هارون الرشيد، والتي لاقت اهتماما وتطورا زمن المأمون(بن بلة، وعزوق، وبوزرينة،2014: 23-24)، ومنه اعتبرت النواة الأولى لاستقلالية المدارس ببناءاتها كدور للعلم، والتي كانت عبارة عن خزائن. وما نهتم له هو أن المدارس استقرت وحافظت على وظيفتها التعليمية وانتشرت في الأقاليم الإسلامية مع انتشار العلوم ونشاط حركة الترجمة، فانتشرت جغرافيا مع الزمن في الشام ومصر ومنه إلى المغرب الإسلامي.

وقد شدني ما أشار إليه حسن باشا من أن أسلم طريقة لتفهم تصميم المدرسة وتطورها في العالم الإسلامي أن يُبحث في ضوء معطيات، منها الطراز المعماري الذي كان سائدا في المنشآت الإسلامية الأولى بصفة عامة ووظيفة المدرسة، لأن المصمم يتحتم عليه أن يراعي ملائمة وظيفة المبنى والظروف البيئية المعمارية التي نشأت فيها المدرسة ليرى أثر ذلك في تصميمها(باشا ،1999: 328).

ويمكن أن ننصف عمارة المدرسة -الأثرية- في تصميمها الهندسي وفنياته بتتبع ملامح هيكل هندستها في نماذجها الأولى في المشرق الإسلامي، فتخطيطها وتوزيع أقسامها بين الأساسية والمرافق التي تكون من الضروريات أو التحسينات فيها تمكّن من تجنيب هذه المنشأة

ما يحيط بها من محاولات ارجاع أصولها إلى التأثيرات الخارجية التي لا تتماشى مع مجموع وظيفتها.

2- هل من تأثر لعمارة المدرسة بعمارة المسجد؟

إن الانشطار الذي حدث بين المدرسة والمسجد، عمارة ووظيفة، حيث استقلت المدرسة التي كانت مكملا للوظيفة الدينية التي كان يتأثل بها المسجد في العصر المبكر، وأصبحت شكلا جديدا لنوع من العمائر دخل العمران الإسلامي ولازم تخطيط مدنه. هذا يجرنا إلى تتبع الأشكال التصميمية التي أخذتها عمارة المدرسة عن عمارة المسجد، وملامح استمرار وثبات الوظيفة في احتضان المدرسة للعلم واستقلالها بدور جديد يوحي برعاية خاصة، وبالمقابل هناك مؤشرات من العناصر المعمارية تبين ما لم تتقيد به المدرسة في عمارتها والتي بقيت ملازمة لعمارة المساجد، لاعتبار أن الامتداد التاريخي لعمارة المدرسة في العالم الإسلامي إنما مبدؤه المشرق الإسلامي، حيث كانت الأرضية الفنية الأولى والتي تلتها مراحل سجل فيها زيادة حجم الاهتمام بها. كما لا يجزم تأثر عمارة المدرسة تخطيطا وتصميما بعمارة المسجد في القرنيين الرابع والخامس الهجريين، حين تبلورت فكرة المدرسة وإقامة بنيانها حيث احتوت على تجهيزات ومرافق لم يحتاج إليها المسجد(عزب ،2002: 93). وعليه نعرج على جوانب من أصولها في كل من المشرق والمغرب الإسلاميين.

3- المدرسة في المشرق الإسلامي:

يردّ الباحثون الأصول المعمارية للمدرسة في إشارة جوهرية إلى أن ميزتها الأساسية في المشرق هي تعدد الأواوين (بوطارن، 2011: 246) - بخلاف المدرسة في المغرب، وهو ما سنراه حقا. فما يخلص إليه جورج

مارسيه، أن في مصر اختلفت المدرسة كثيرا في أصلها عن المسجد، ثم بدأ تأثرها به شيئا فشيئا حتى اختلطت به(مارسيه، ب س:377). ومن الباحثين من لا يسند أحادية الأواوين(إسماعيل الحداد ،2014 : 135. 137) أو تعددها بالمدرسة الواحدة إلى علاقتها بعدد المذاهب التي تدرس فيها، حيث كان منها بالشام ما احتوت على أكثر من إيوان ويدرّس فيها مذهب واحد، وأن مدرسة المنصورية كان بها إيوان واحد وهي موقوفة على المذاهب الأربعة، ومدرسة الأقبغاوية بالجامع الأزهر أوقفت على المذهبين الشافعي والحنفي وليس فيها إيوان وإنما بيت صلاة واحد مربع(محمد رزق، 2000: 271).

حسب عاصم محمد رزق إن كريزويل يذكر أنه لا توجد مدرسة سورية واحدة تتخذ النظام الصليبي أو شبه الصليبي، كما أن مدارس مصر في العصرين الأيوبي والمملوكي تختلف اختلافا جوهريا عن مدارس سوريا السابقة لها أو المعاصرة لها، فكيف تتأثر مدارس مصر بنموذج غير موجود في سورية والمدرسة انتقلت منها إلى مصر؟ كما يعتبر عنصر الصحن المكشوف عنصر مهم في المرجعية المعمارية للمدرسة.

إن شئنا أن نضع تقييما معماريا أثريا عن اقتباس تصميم المدرسة من الشكل الصليبي، حيث أن الصحن الأوسط في كل من المدرسة والمسجد يختلف عن الضرورة المعمارية التي احتاجتها الكنيسة في اقامة القبة. كما أن بعض المدارس كانت في الأصل دورا اتخذت للتدريس. ومنه نلحظ تطور عمارة المدرسة التي أصبح من الصعب التمييز بينها وبين المسجد لأنها أصبحت تحتوي على العناصر التخطيطية والمعمارية والتأثيثية أيضا للمسجد يشتركان في اقامة الصلاة ومنه يصعب التمييز بينهما تخطيطا وعمارة(محمد رزق، 2000 : 272-273). حيث يضع المؤلف

اشارات مهمة عن التطور المعماري للمدرسة وعلاقتها بالمسجد إلى امكانية استيعاب قوله أن: "المدرسة يمكن الاطلاق عليها المسجد الجامع"(محمد رزق، 2000:273).

أما عن مدارس تركيا العثمانية نجد أن مجمع السليمانية يضم عدة نماذج، حيث يحتوي على سبع مدارس، خمسة منها بمستوى الثانوية وواحدة كلية واثنان للاختصاص وكانت خدمتها للموظفين والمتعلمين والضيوف والفقراء(عزب،2002 :93). كما عرفت عمارة مدارس العهد العثماني أنماطا متنوعة(اسماعيل الحداد، 2014 :139).

4- المدرسة في المغرب الإسلامي:

إن النظر في الوجهة المعمارية الوظيفية للمدارس الأثرية في الجزائر خلال العهد العثماني -محور تركيزنا- له علاقة بأماكن التدريس، من قاعات وتجهيز، وهي وظيفية البناء هندسة وفنا وتنظيما.كما أن البحث في عمارة مدارس العهد لا يمكن عزله عن المسار التاريخي لهذه المؤسسة فمن الضروري ربطه على الأقل بالفترة التي سبقتها وهي الفترة المرينية. علما أن تأكيد المؤثرات الفنية المعمارية المحلية على مدارسها يأخذ امتداده إلى الفترة الموحدية تحديدا.

فتح الموحدون ببلاد المغرب الإسلامي للعلم أبوابا، بأن كانوا أول من شيّد به المدارس(إسماعيل الحداد، 2014 : 148) على يد عبد المؤمن بن علي (1130- 1163م). أما في المغرب الأوسط (الجزائر) فإن أول مدرسة يحتضنها على أرضه هي مدرسة أولاد الإمام(710 -1310م) والتي يعتبرها أبو القاسم سعد الله مدرسة للتعليم الثانوي العالي (قرمان، 2011: 108). وتعتبر المدرسة التاشفينية ثاني مدرسة بالمغرب الأوسط، أنشأها أبو تاشفين ابن أبي حمو موسى الأول(718-737هـ/ 1318-1337م) لكنها

هدمت في الفترة الإستعمارية سنة 1873م، والتي تميزت بتصميم يماثل المدارس المرينية مع بعض التأثيرات المشرقية خاصة في بيت الصلاة(بوطارن، 2011 :249)، ولم تكن هذه المدرسة الوحيدة التي أسست في المغرب الأوسط، لدينا أيضا مدرسة أبي مدين شعيب - مدرسة العباد-(747-1346م) وهي أقدم مدرسة قائمة بالجزائر(محمد أبو رحاب، 2011 : 132).(الشكل:01) (الصورة:01) ويمكن الاستدلال بهذه المدرسة في تتبع صورة المدرسة في الفترة المرينية كونها تحتفظ بالكثير من ملامحها، سواء في شكلها العام أو عناصر عمارتها الأصلية ما عدا بعض الترميمات التي عرفتها في الفترة العثمانية(بوطارن، 2011: 256-257) وقد جددهما الباي محمد الكبير وزادت شهرتها خلال العهد العثماني(قرمان، 2011 : 108- 112). وهي بتخطيط مستطيل يتوسطها صحن حوله بوائك وثمانية غرف للطلبة في صفين متقابلين، وبيت للصلاة والدرس في آن واحد، وبيت للوضوء ومئذنة. حيث التخطيط العام للمدرسة يشبه تخطيط المسجد(بوطران، 2011 : 249- 260). وما يلاحظ بمدرسة أبي مدين شعيب تقارب مخططها مع مخطط الجامع في وجود بيت للصلاة وغرفة خلفية في المدرسة، الساحة المربعة والصحن، والمحراب في كليهما، وصفوف الغرف الجانبية والخلوات الجانبية(بوطران، 2011 : 177-377). أما المدارس المرينية الباقية في المغرب الأقصى اشتهرت بنمطين(اسماعيل الحداد، 2014 : 151-157).

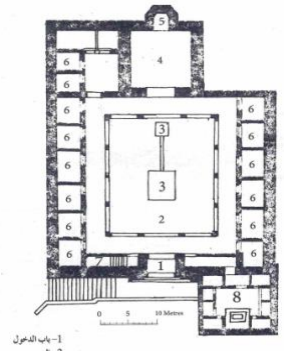

(الشكل:01) :مخطط مدرسة أبي مدين شعيب بالعباد من تلمسان (عن: جورج مارسييه)

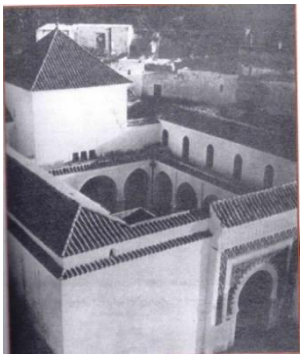

(الصورة:01) مدرسة أبي مدين شعيب بالعباد من تلمسان (عن: جورج مارسييه)

5- مدارس الجزائر خلال الفترة العثمانية:

إنَّ ما ميّز مدارس العهد العثماني بالجزائر وجود حالتين - نوعين- الأولى تم فيها استغلال المدارس السابقة والتي ترجع للفترة المرينية خاصة، أما الثانية فالقيام بإنشاء مدارس جديدة مع قلتها، اضافة إلى معرفتها لتغييرات كثيرة، في كثير من الأحيان جوهرية. فالتي استغلت من الفترات السابقة للعهد العثماني نجد مدرسة أبي مدين شعيب بتلمسان، ومدرسة سيدي عبد الرحمان الثعالبي بالعاصمة(بحيري، 2013: 163) مع احتفاظها بتسميتها. أما التي تم تأسيسها خلال العهد العثماني، نجد مدرستي سيدي الكتاني وسيدي لخضر بقسنطينة، ومدرسة ابن مروان بعنابة(سعد الله ، ب س: 460) ومدرسة بعنابة والقل وجيجل(بحيري، 2014 : 163)، ومما قام به صالح باي أن عين المدرسين لتدريس الفقه والتفسير والحديث واللغة وغيرها من العلوم وخصص موارد من الأوقاف كأجور ومنح للطلبة كما وضع نظاما داخليا لتسهيل تمدرس طلبة الأرياف(شويتام، 2009: 487) هذا في الشرق الجزائري، إضافة إلى مدرسة الناصرية ببسكرة(حديبي، 2022 : 328). كما نجد مدرسة خنق

النطاح بوهران، ومدرسة مازونة بغليزان. وكان للباي محمد بن عثمان أثره في تشييد عددا من المدارس في مدن وأرياف بايلك الغرب وخصص لها مداخيل الأوقاف للإنفاق عليها من حيث التسيير ورواتب الموظفين فيها(شويتام ،2009 : 485).

يؤكد ناصر الدين سعيدوني على تدرج التعليم في اقليم دار السلطان من المستوى الابتدائي إلى المتوسط إلى التعليم العالي مع انتشار المدارس في الريف أيضا حيث قام بالتعليم فيها معلمين وفقهاء (سعيدوني، 2014 : 390-392). وإن عدد المدارس التي أنشأت قليل جدا أمام طول العهد، وأيضا مقارنة بتونس التي عرفت خلال نفس العهد سبعة عشرة مدرسة في العاصمة والعشرات منها في كل من القيروان وقابس، وباجة، وجربة وغيرها من المدن. وهذا لما أولاه البايات من عناية بها، حيث شجعوا بناءها وبالتالي تعددت المدارس، وتعددت معها مراكز العلم(حديبي، 2021 -2022 : 209).

يرى وليام شالر أنه من غير النافع الحديث عن الوضعية التعليمية في مدينة الجزائر خلال العهد العثماني كون التعليم كان مركزا على تعليم القراءة والكتابة للأطفال بسن الخامسة والسادسة -وما فوق- وبأدوات بسيطة وأن التعليم كان مقتصرا على الكتاتيب (William Shaler , 1830 : 62) هذه الأخيرة التي انتشرت في المدن والقرى وأسهمت كثيرا في تراجع الأمية في الجزائر(توفيق المدني، 1984: 90). أما ليسيور وويلد، يذكر أن تعدد المدارس-الكتاتيب- في مدينة الجزائر وأنها خصصت لتعليم القراءة والكتابة (E .Lessore et W.Wild , 2010,(s.p).

6- أشهر المدارس القائمة والمندثرة:

عن المدارس القائمة بالجزائر(بوعزيز، 2013 :211)، لدينا مدرستي سيدي الكتاني بقسنطينة وسيدي لخضر، ومدرسة ابن مروان بعنابة، والمدرسة التاشفينية ومدرسة أبناء الإمام وسيدي بومدين بتلمسان، ومدرسة سيدي عبد الرحمان الثعالبي بمدينة الجزائر. أما المدارس التي عرفت نشاطا وأفلت فمدرستي مليانة ومازونة، وندرومة ومدرسة المحمدية بمعسكر، وكغيرها من المعالم الأثرية تعرضت للهدم الكلي في الفترة الاستعمارية(قرمان، 2011 : 112). كما يشير مصطفى بن حموش إلى عدد المدارس التي الباقية وتلك التي هدمت إبان العهد الاستعماري الفرنسي وأخرى صودرت من طرفه والمدارس التي كانت لها أوقافا ومدارس موثقة بكتابات، تحديدا في مدينة الجزائر(بن حموش، 2007 : 43-126).

إن محاولة التعرف على التأثيرات الفنية التي يمكن أن تكون تلقتها عمارة مدارس العهد العثماني ليس بالأمر المتاح، كما أنه يصعب ضبطها أحيانا، وليس لدينا من النماذج الكافية التي تسمح بالإحاطة بذلك، نتيجة عدة عوامل نوجزها فيما يلي:

- مدارس تقوم على تخطيط أصلي وأقسام بناء أصلية وبالتالي وضوح النموذج الأصلي.
- مدارس هدمت كلية وبالتالي غياب النموذج التصميمي.
- مدارس طرأت عليها تغييرات معمارية مست الأصل فيها، مما أثر على عدم امكانية تمييز الأصلي في البناء من المستحدث.

تجدر الإشارة إلى بعض النماذج من مدارس العهد العثماني بالجزائر والتي مازالت قائمة هو ما يسمح بالإلمام بهندستها تخطيطا

وتصميما، أما ما تعلق بحجم الفضاءات وسعتها فله اعتبارات أخرى تحكمت فيه. وإن ما يستغرب له جورج مارسيه عن مدينة الجزائر هو عدم شهرتها بأي مدرسة(Marçais ,1954 :437) إن لم نقل إنه لم تؤسس بها واحدة تليق بمكانة العاصمة رغم أهميتها سياسيا وعسكريا إذ لم تحتضن أي مؤسسة تعليمية ذات شهرة. ويذهب بوبير إلى نفس ما يراه شالر، في أن مدارس هذه المدينة لا تناظر ما عرفته القيروان والزيتونة وأيضا تلمسان خلال العهد العثماني، إضافة إلى نفيه لوجود علم تقني(P.Boyer, ,1963 :198).

لازم هذا الوضع أن التعليم كان مجانا ومؤسساته كانت تابعة للخواص في أغلب الأحيان ولم تسهم الدولة في ادارتها، كما أن الإنفاق عليها كان من الأوقاف والهبات(تابليت، 2011: 198). ويمكن إيجاز العوامل التي أثرت على الوضع التعليمي في أسباب تتعلق بعدم اهتمام الحكام عدا نفر قليل منهم كباي معسكر الذي أحب العلم والعلماء. ومن الأسباب أيضا أن نفقات التعليم تحملها السكان، مما أثر أيضا على هجرة العلماء وانصرافهم إلى التجارة ورغم هذا التدني في المستوى التعليمي فإن السكان حرصوا على تعليم أبناءهم سواء في المدن أو القرى(شويتام، 2009: 478-484).

مدرسة سيدي الكتاني:

أسست مدرسة سيدي الكتاني بمدينة قسنطينة أعلى المدينة القديمة وفي شمالها بالقرب من مسجد سيدي الكتاني (P.Boyer, 437: 1963,)، من طرف صالح باي سنة 1189هـ-1775م وسميت بهذه التسمية نسبة للولي الصالح سيدي الكتاني، وتوجد بالقرب منها مقبرة، يوجد بالمقبرة قبر صالح باي وعائلته والمعلمين والقضاة الذين

كانوا بها. وقد عرفت تجديدات في الفترة الاستعمارية، أما حاليا فهي ملحق لدار الإمام لمبيت الضيوف والأئمة(منصوري ، 2015: 195، 196).

تقوم المدرسة على مخططها الأصلي، يتوسطها صحن مربع تتوسطه هو الآخر ميضأة وحوله بائكة(الشكل:02)(الصورة:02). احتوت على قاعة للدراسة أقيمت فيها الصلوات الخمس أيضا، وحجرة صغيرة. وإنّ التعديلات التي أدخلت عليها لا تمكننا من الاستفادة من أسلوبها المعماري، فهي لم تحافظ على شيء من أصالتها سوى بعض العناصر المعمارية(منصوري2015 :197). والمؤكد أنها كانت من طابق واحد فقط، حسب القانون الذي وضعه صالح باي لتسييرها والذي وصف بأنه كان محكما(بوعزيز، 2013: 211).

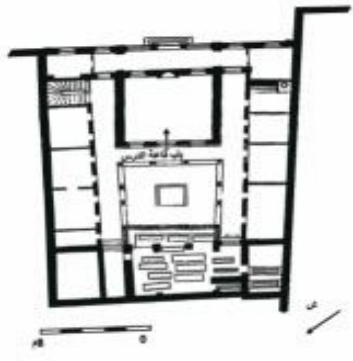

(الشكل:02) مخطط مدرسة الكتاني بقسنطينة(عن: خيرة بن بلة)

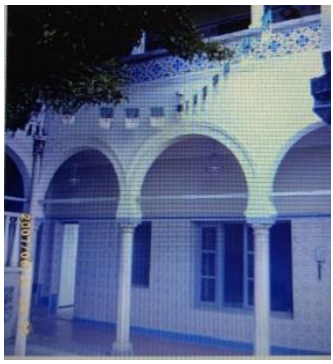

(الصورة:02) جانب من صحن مدرسة الكتاني بقسنطينة(عن: خيرة بن بلة)

مدرسة الجامع الأخضر:

تعد مدرسة الجامع الأخضر نموذج آخر نراه يوازي أهمية المدرسة السابقة، وهي دليل آخر لمدارس الجزائر خلال العهد العثماني. أسسها صالح باي بمدينة قسنطينة وانتهت الأعمال بها سنة 1193هـ-1779م(بوعزيز، 2013: 211) كملحقة للمسجد الأخضر في جهته

الشرقية. تعرضت لتغييرات غيرت عدة ملامح معمارية فيها، وهي تقوم على مسقط مستطيل في الطابق العلوي فوق ميضأة الجامع. بها قاعة للدرس، وثلاث غرف، ومطبخ ، ومخزن وميضأة وأضيف لها طابق علوي في الفترة الاستعمارية. ويعتقد أنها احتوت محرابا إلا أنه أزيل وبقيت أثاره فقط. كما حلت القاعة بجانب زخرفي بسيط من بلاطات خزفية تحمل مواضيع من زخرفة هندسية ونباتية(دحدوح، 2009: 327- 334).

المدرسة الناصرية:

تقع المدرسة الناصرية بخنقة سيدي ناجي ببسكرة، وهي ضمن مجمع ديني، يضم المدرسة والمسجد الملاصق لها والأضرحة والمقبرة (الشكل:03)، أسسها أحمد بن ناصر التونسي. وهي من طابقين ،يتوسطها صحن حوله غرف (الصورة :03) ومن مرافقها خزانة الكتب والميضأة.

المخطط رقم 15: مخطط المدرسة الناصرية ضمن المجمع الديني الذي يشمل المسجد والصحن والأضرحة والمقبرة (عن علاوي تحية بتصرف)

(الشكل:03) مخطط مدرسة الناصرية ضمن المجمع الديني(عن : مراد حدييي)

(الصورة:03)صحن المدرسة الناصرية ببسكرة(عن : مراد حدييي)

مدرسة خنق النطاح:

تقع مدرسة خنق النطاح شرقي مدينة وهران، وليس هناك تاريخ محدد لتأسيسها، أسسها الباي محمد بن عثمان(بحيري، 2013 : 164)

سنة 1245هـ- 1779م وهي بطابق واحد، استغلت للدراسة وإقامة الصلوات الخمس.

عرفت المدرسة تغييرات في تصميمها المعماري مست الأروقة والمئذنة والصحن الذي كانت حوله أروقة وتمت تغطيته وحوّل إلى بيت صلاة. وما يلفت الانتباه فيها هو غياب غرف الطلبة والذي يحمل عدة تأويلات. وحسب حدييي إما هدمت أثناء تحويل المدرسة لمسجد أو هدمت في الفترة الاستعمارية أو غير موجودة أصلا أو أن المدرسة عرفت نظام خارجي(الصورة:04) (الشكل:04).

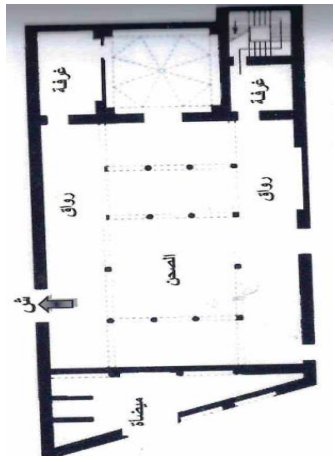

(الشكل:04) مخطط مدرسة خنق النطاح بوهران(حدييي عن: علي بوشيشة)

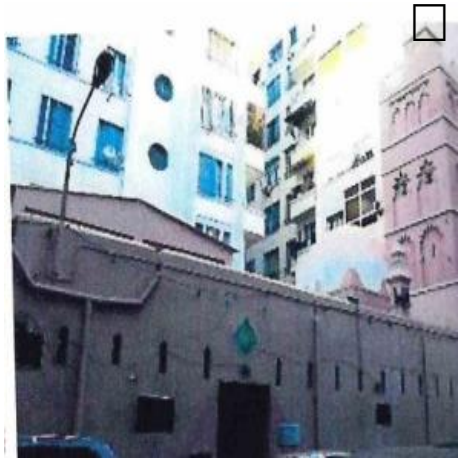

(الصورة:04) واجهة لمدرسة خنق النطاح بوهران(حدييي عن: علي بوشيشة)

مدرسة مازونة:

تقع مدرسة مازونة بحي السويقة القديمة بمدينة غليزان وهي من أقدم مدارس العهد العثماني بالجزائر. أسست أواخر القرن 16م، وكان لها نظام وتقاليد متينة استمدتها من صلتها بالتعليم في تلمسان والأندلس والمغرب الأقصى، كما لقيت اهتماما من الباي محمد بن عثمان (سعد الله، ب. س: 286). وهي من طابق واحد تضم صحنا أوسطا وحوله غرف

التدريس وغرف الطلبة، ومن ملاحقها مسجد وغرف أضرحة لأئمة درّسوا بها(الشكل:05) (الصورة:05)، وخزانة كتب(حدييي، 2021-2022: 332). وقد عرفت عدة ترميمات من طرف بايات الغرب الجزائري.

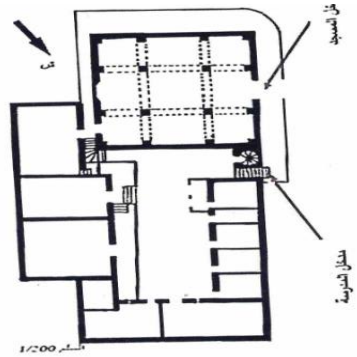

(الشكل:05) مخطط مدرسة مازونة
(عن: حدييي مراد)

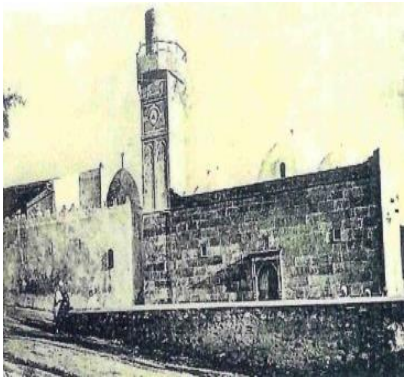

(الصورة:05) مدرسة مازونة (صورة أرشيفية)

خاتمة:

تعد هذه الورقة البحثية حوصلة جد مركزة لما أمدتنا به عمارة المدارس، خاصة الباقية منها، بالرغم مما تلقاه التخطيط والتصميم المعماري من انتقاد في أصوله المعمارية في حدود جغرافية وبيئة ثقافية. ما يمكن الوقوف عنده من خلال تتبع مسار أسلوب تخطيطها وتصميمها، أنها تشترك في أربع مواصفات أساسية؛ هي إيوان قبلتها الذي يشبه بيت الصلاة في المسجد، وهو أكبر وأهم العناصر التصميمية فيها، كما أن الحدود الداخلية للمدرسة تنتظم في مستطيل مع وجود صحن أوسط. إضافة إلى أن كل مدرسة تضم قاعات للدرس وغرف للطلاب والمدرسين ومكتبة وغرف أخرى للأكل وللجلوس، ومطبخ ومخبز وحمام ودورة

مياه ومرافق للمنافع العامة ـ اسطبل وبئر ـ ومعظمها به ضريح أو أكثر في أحد أركانها.

أما عن مدارس المغرب الأوسط -تحديدا- فإنها تأثرت بتخطيط الجوامع وأن تأثير الأخيرة عليها واضح وليس للتخطيط المتعامد أثرا على عمارتها ونحن بهذا أمام مخطط للمدرسة بنمط جديد مغاير للمشرق، نمط يحيي تقاليد معمارية مسجدية وظفت في بناء المدرسة كما لم يظهر أثر المذهبية في تخطيط المدرسة المغربية، حيث تميزت بنمط يشبه الجامع ولا يعكس تأثير المذاهب وذلك في انعدام التعامد في تخطيطها ،فاتباع المغرب الإسلامي لمذهب ديني واحد، لم يحتاج معه إلى تعدد الأواوين، ليتوزع فيها طلبة العلم حسب مذهبهم.

أما عن عمارة المدرسة في الجزائر خلال العهد العثماني بين التقاليد المحلية والتأثيرات الوافدة، فلم تختلف عما عرفه العالم الإسلامي من تخطيط ووظيفة والتي عرفت محاكاتها لتخطيط المساجد، فهي بتصميم أجمع لأغراض الدراسة المتصلة بها.

إن التشبث بالأصول التصميمية، المحلية، لما قبل العهد العثماني أو تبني التصاميم الوافدة -العثمانية- أو الجمع بينهما، نوجز أهمه فيما يلي:

- ✓ إنشاء المدارس مس فقط المقاطعة الشرقية والغربية، والذي كان بدافع محاربة الزوايا مهد الطرق الصوفية.
- ✓ جاءت المدارس إما ملحقة بالمسجد أو ألحق بها مسجد.
- ✓ تصميم المدرسة حقق ثلاث وظائف أساسية؛ الدراسة، وإقامة الصلوات، وخدمة المتعلمين، حيث التكامل بين الأقسام والوظيفية ميّز نوعا ما تصميمها المعماري.

- ✓ من مرافق المدرسة التي لا نجدها في المسجد: المطبخ والمخازن وحجرة للطعام والحمام.
- ✓ نصيب عنصر الجمالية فيها ضئيل أمام نصيب المسجد الثري زخرفة وتنميقا.
- ✓ تصميم المدرسة تخطيطا وعمارة يكاد يتفق مع الأقاليم الإسلامية، سوى اختلافات في بعض التفاصيل التي لم تؤثر على أسلوبها المعماري العام ولا على وظيفتها، واحتفظت على مر تاريخها بالوظيفة التي أسست لأجلها.
- ✓ تأثر النمط المعماري لمدارس الجزائر خلال العهد العثماني بالمدارس العثمانية ليس واردا، فهي لا تعتمد على التسقيف بالقباب وهو ما تنهجه عمارة العثمانيين.
- ✓ ما يلاحظ أيضا هو استمرار النمط الأول الذي ميّز المغرب الإسلامي -الموحدي والمريني- والذي يتضح جليا في مدارس العهد العثماني. بالموازاة مع غياب نظام الأواوين الذي اعتمد كتصميم لمدارس المشرق الإسلامي.

ختاما يمكن القول إنه ما دام لم تكن في العهد العثماني "هيئة" تسهر وتحرص على النظام التعليمي، يدفعنا هذا نحو قراءات أخرى تقييمة ونقدية، يمكن من خلالها لمس أثر غياب تلك "الهيئة" على العلم والعلماء والوضعية التعليمية وظروف انشاء المدارس بصفة عامة.

قائمة المصادر والمراجع:

1- باشا حسن، (1999). **موسوعة العمارة والآثار والفنون الإسلامية**، المجلد الأول، أوراق شرقية، الطبعة الأولى.

2- بحيري أحمد، (2013). **الجزائر في عهد الدايات، دراسة للحياة الاجتماعية إبان الحقبة العثمانية**، دار الكفاية.

3- البرغوثي يوسف، (2016) **العمارة الإسلامية**، فن وابداع، الطبعة الأولى.(ب ط).
4- بن بلة خيرة وآخرون، (2014) . **زوايا ومدارس الجزائر**، دراسة أثرية معمارية فنية، DGRSDT-CRASC. الجزائر.
5- بوطارن مبارك، **العمارة** ،تلمسان الإسلامية بين التراث العمراني والمعماري والميراث الفني، أعمال ملتقى دولي، الجزء الأول، تلمسان، 3-4-5 أكتوبر 2011، منشورات وزارة الثقافة.
6- بوطارن مبارك، (2011). **العمارة الدينية في المغرب الأوسط**، كنوز الحكمة، الجزائر.
7- بوعزيز يحي، (2011). **موضوعات وقضايا من تاريخ الجزائر والعرب**، الجزء الأول، دار الهدى، الجزائر.
8- تابليت علي، (2011). **بحوث في تاريخ الجزائر، الجزء الثاني، المقاومة والثورة التحريرية**، ثالة، الجزائر
9- الحداد محمد حمزة إسماعيل، (2014). **العمارة والفنون في الحضارة الإسلامية**، المجلد الأول، الطبعة الأولى، دار المقتبس.
10- حديبي مراد، (2021-2022). **مدارس التعليم في بلدان المغرب الإسلامي خلال العهد العثماني**، رسالة دكتوراه غير منشورة في الأثار الإسلامية، جامعة الجزائر2.
11- بن حموش مصطفى، (2007). **مساجد مدينة الجزائر وزواياها وأضرحتها في العهد العثماني**، من خلال مخطوط ديفولكس والوثائق العثمانية، الطبعة الأولى، دار الأمة.
12- دحدوح عبد القادر، (2009-2010). **مدينة قسنطينة خلال العهد العثماني**، دراسة عمرانية أثرية، رسالة دكتوراه غير منشورة في الأثار الإسلامية، جامعة الجزائر2.
13- رزق عاصم محمد، (2000). **معجم مطلحات العمارة والفنون الإسلامية**. مكتبة مدبولي.
14- سعد الله أبو القاسم، (ب،ت). **تاريخ الجزائر الثقافي من القرن العاشر إلى الرابع عشر الهجري** (16-20م)، الجزء الثاني، الطبعة الثانية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر.

15- سعيدوني ناصر الدين،(2014) **الحياة الريفية بإقليم مدينة الجزائر(دار السلطان)، أواخر العهد العثماني**(1791-1830)، البصائر، الجزائر.

16- شويتام أرزقي، (2009)، **المجتمع الجزائري وفعالياته في العهد العثماني**، 926 – 1246 \ 1519 – 1830، دار الكتاب العربي، الطبعة الأولى.

17- طرشاوي بلحاج،(2017). **العمارة الإسلامية، اصولها الفكرية ودلالتها الثقافية والبيئية**، النشر الجديد.

18- عزب خالد، (2002). **تراث العمارة الإسلامية**، دار المعارف.

19- قرمان عبد القادر،(2011). **تلمسان الإسلامية بين التراث العمراني والمعماري والميراث الفني**، أعمال ملتقى دولي، الجزء الأول، تلمسان،3-4-5 أكتوبر 2011، منشورات وزارة الثقافة.

20- لشريف كمال دحومان الحسني،(2009)، **أشراف الجزائر ودورهم الحضاري في المجتمع الجزائري**، دار الخلدونية، الطبعة الأولى.

21- مارسيه جورج، (ب، ت). **المعالم الأثرية لمدينة تلمسان**، ترجمة: مراد بلعيد وآخرون، الأصالة للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، الجزائر.

22- محمد السيد محمد أبو رحاب،(2011). **ملامح تخطيط العمائر الدينية المرينية بالمغرب الأقصى ومدينة تلمسان بالمغرب الأوسط**، دراسة آثارية مقارنة، تلمسان الإسلامية بين التراث العمراني والمعماري والميراث الفني، أعمال ملتقى دولي، الجزء الأول تلمسان،3-4-5 أكتوبر 2011، منشورات وزارة الثقافة.

23- المدني أحمد توفيق،(1984)، **كتاب الجزائر**، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر.

24- منصوري محمد،(2015). **المشغولات المعدنية على الأبواب الخشبية بعمائر مدينيتي الجزائر وقسنطينة**، دراسة أثرية فنية، موفم للنشر، الجزائر.

25 -E. Lessore – W. Wild**, (**2010). ***La Regence D'Alger***, ENAC, Reghaia, Alger.

26-George Marçais**, (**1954). ***L'architecture Musulmane D'occident***, France.

27-P. Boyer**, (**1963). ***La Vie Cotidienne à Alger***. La veille de l'intervention française, hachette.

28-William Shaler, **(**1830). ***Esquisse de l'Etat d'Alger (presentation et notes de claude bontems)*** bouchene, paris.